المقرى مؤرخ الأندلس

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ١ —

عرفت المقّرى — صاحب نفح الطيب حدثاً، وشغفت بأثره الجامع عن الأندلس، وأعجبت بجهده الجلد، وأدبه الممتع، واستطعت بعد أعوام طويلة من البحث والتنقيب فى تاريخ الأندلس، أن أدرك أهمية الشذور الضافية والوثائق الجمة، التى وقف عليها المقرى فى عصره، وألهم أن ينقلها الينا فى كتابه، ولولاه لغاضت مع مصادرها الأصيلة إلى الأبد، وحيل بيننا وبين الانتفاع بذلك التراث الحافل الذى يقدمه الينا المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض

وقد خطر لى غير مرة أن أكتب ترجمة موجزة للمقرى، وأن أستعرض مجهوده وتراثه؛ وأحسب الآن أن فرصة خاصة تعرض للوفاء بهذه المهمة، ذلك أنى قد أزمعت — بعون الله — الرحلة إلى تلك الأندلس التى ملأت حياة المقرى، وأذكت أدبه وبيانه، وأجرت قلمه أعواماً طوالا، وأزمعت أن أحج إلى تلك الربوع والمروج والمعالم التى أفاض المقرى فى وصفها، والتغنى بمحاسنها الذاهبة، وآثار أطلالها الدارسة، والتى ما زالت ذكرياتها قبل المقرى وبعده تسيل عبرات التاريخ الاسلامى

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الشهير بالمقّرى نسبة إلى مقّرة، موطن أسرته القديم، وهى بلدة من أعمال قسطنطينة، واليها ينتسب عدة من علماء المغرب الأكابر. ولد، كما يحدثنا فى مقدمة كتابه « نفح الطيب » بمدينة تلمسان ونشأ بها[1]، ولم يذكر لنا تاريخ مولده، وهو تاريخ يضعه بعض الباحثين المحدثين فى نحو سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ — ١٥٩٢م)[2]؛ بيد أنه يلوح لنا من تتبع نشأة المقرى وحوادث حياته حسبما يقصها علينا، أنه ولد قبل ذلك التاريخ بعدة أعوام، فهو أولا يذكر لنا أنه « نشأ بتلمسان الى أن رحل عنها فى زمن الشبيبة الى مدينة فاس سنة تسع وألف »[3]، فلو كان مولده سنة ١٠٠٠ لما تحدث هنا عن الشبيبة، إذ يكون عمره عندئذ تسعة أعوام فقط، أعنى غلاماً حدثاً، وهو ما لا ينصرف إليه الشباب؛ ثم هو يشير حين التحدث عن اعتزامه كتابة موسوعته عن الأندلس إلى شبابه الذاهب الذى قضاه بالمغرب قبل وفوده على مصر سنة ١٠٢٧ هـ[4]، وفى هذه الاشارة أيضاً ما يدل على أن المقرى حين مقدمه الى مصر، كان قد طوى مرحلة الشباب الأولى؛ وربما كان يومئذ فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره؛ وعلى ذلك يكون مولده قبل الألف بنحو ثمانية أعوام؛ أعنى حوالى سنة ٩٩٢ هـ (١٥٨٤) م

ونشأ المقرى فى تلمسان، التى نشأ بها أبوه وأجداده من قبل، وتلقى بها دراسته الأولى، ودرس الأدب والحديث والفقه المالكى دراسة حسنة، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرى مفتى تلمسان؛ وكانت تلمسان ما زالت حتى عصره من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب، وزار فاس لأول مرة سنة ١٠٠٩ هـ، وقضى بها حيناً فى الدرس؛ ثم زارها مرة أخرى فى سنة ١٠١١؛ ثم استقر بها منذ سنة ١٠١٣. وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى؛ وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض، ولا سيما فى المكتبة السلطانية؛ واتصل بمولاى زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش، وولى الامامة والخطابة لجامع القرويين الشهير، ثم ولى الافتاء، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧ هـ[5]

وفى أواخر سنة ١٠٢٧ هـ، اعتزم المقرى الرحلة الى المشرق. والظاهر أنه لم يعقد هذا العزم مختاراً، وأنه أرغم عليه لأسباب وظروف يشير إليها، ولا يوضحها؛ فهو يقول لنا إنه « لما قضى الملك الذى ليس لعبيده فى أحكامه تعقب أو رد... برحاتى من بلادى، ونقلنى عن محل طارفى وتلادى، بقطر المغرب الأقصى، الذى تمت محاسنه لولا أن معاسرة الفتن ساءت بضائع أمنه نقصاً، وطما به بحر الأهوال... وذلك فى أواخر رمضان من عام سبعة وعشرين

(١) نفح الطيب (طبعة القاهرة) ج ١ ص ٨

(٢) الأستاذ ليفى بروفنسال فى دائرة المعارف الاسلامية

(١) سلافة العصر (ص ٥٩٠)

(٢) نفح الطيب - ج ١ ص ٥٦

(٣) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٢؛ وسلافة العصر ص ٥٩٠

بعد الألف ، تاركاً المنصب والأهل والوطن والإلف... » [١]

أما هذه الظروف التي يشير اليها المقري والتي قضت عليه بالرحيل عن الوطن ، فنستطيع فهمها على ضوء الحوادث التي كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ ؛ فقد تولى مولاي زيدان الملك دون أخويه المأمون ، وأبي فارس (سنة ١٠١٢هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية ؛ وهزم مولاي زيدان أولا ، وفر إلى تلمسان ، ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية ، وبعد أن أجلي عنه غير مرة ، في سنة ١١٠٨هـ ؛ بيد أن عهده كان مضطرباً ، فياضاً بالحروب والفتن ؛ ولا ريب أن المقري لم ترقه هذه الحياة المضطربة ، وأنه اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة التي كانت تكدر صفو الحياة في فاس ، وعلى كل حال فقد غادر المقري وطنه في أواخر سنة ١٠٢٧ هـ ، وركب البحر إلى مصر ، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالا يصفها لنا في عبارات قوية مروعة [٢] ؛ والظاهر أيضاً أن سفينته كانت تخشى مطاردة القرصان النصارى ، فكان الخوف مضاعفاً ؛ وقد كانت مياه البحر الأبيض المتوسط يومئذ مسرحاً لمعارك هائلة مستمرة بين سفن المسلمين والنصارى ، ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة في أواخر سنة ١٠٢٧هـ ؛ ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها برغم ما أصابها في ظل الحكم التركي من عفاء وتدهور ؛ وأقام بها أشهراً ، ثم اعتزم الرحلة إلى الحج في أواخر سنة ١٠٢٨هـ (١٦١٨م) فركب البحر إلى الحجاز وطاف بالأماكن المقدسة ، وعاد إلى القاهرة في المحرم من العام التالي ؛ ثم زار بيت المقدس في شهر ربيع الأول ، وعاد إلى القاهرة واستقر بها ؛ وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية [٣] ؛ ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً ، وقد فصمت عراه كما سنرى بعد أعوام من الحياة الزوجية الكدرة . وكرر المقري الرحلة إلى الحجاز ، وأدى فريضة الحج مراراً ، فلم تأت سنة ١٠٣٧هـ حتى كان قد أداها خمس مرات ؛ وجاور أثناء الحج في مكة ، وألقى بها كثيراً من دروسه ، وأملى الحديث في المدينة ، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة في فاتحة سنة ١٠٣٧ (١٦٢٧م)

واستقر المقري في القاهرة طوال هذه الأعوام ، ولازم الدرس والتدريس بالجامع الأزهر ، وتبوأ مكانته في مجتمع مصر العلمي والأدبي ، وفي رجب سنة ١٠٣٧هـ زار المقري بيت المقدس مرة أخرى ، وألقى بعض دروسه بالجامع الأقصى ، ثم غادرها بعد بضع أسابيع إلى دمشق ، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل ؛ ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين ؛ واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها ، وبالأخص بالمولى أحمد أفندي شاهين وهو من أعيانها الأدباء ؛ وألقى بعض دروسه في الحديث في الجامع الأموي فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب ، وحفل به المجتمع الدمشقي . وكان يبكي السامعين بخطبه ومواعظه ، ويتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده ؛ وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث في حلقاتها الأدبية عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب ، فاقترح عليه صديقه المولى أحمد شاهين أن يضع كتاباً في التعريف بابن الخطيب ، ومناقبه ، وتراثه من نظم ونثر ؛ فاعتذر أولاً بكثرة مشاغله ، وقلة مادته ومراجعه ، وخصوصاً لأنه ترك معظمها في المغرب ، ولكنه اضطر إزاء الالحاح أن ينزل عند هذه الرغبة ، ووعد بالوفاء منذ عوده إلى القاهرة [١]

وعاد المقري إلى القاهرة بعد أن أنفق في دمشق بضعة أسابيع ، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التي أخذها على نفسه ، أعني كتابة ترجمة ابن الخطيب والتعريف بآثاره وتراثه ؛ ويقول لنا إنه استطاع غير بعيد أن ينجز منه قسما لا بأس به ، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم ؛ والظاهر أن المقري لم يكن في مقامه النائي عن وطنه ، هانئاً قرير البال ، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها . ومما يقول في ذلك : « وليت شعري علام يحمد من أبدل الاغتراب شارته ، وأضعف الاضطراب إشارته ، وأنهل بالدموع أنواءه ، وقلل أضواءه ، وكثر علله وأدواءه ، غير عنده التأمل رواءه ، وثنى عن المأمول عنانه ، وأرعف بالخول سنانه ، حتى قدح الذكر حنانه ، وملأ الفكر جأشه وجنانه ... وشتان ما بين الاقتراب والاغتراب ، والسكون في الركوب ، والنبو عنها والاضطراب ، فذلك تسهل غالباً فيه الأغراض والمآرب ، وهذا تتعثر فيه المقاصد وتتكدر المشارب

(١) نفح الطيب — ج ١ — ص ٨ — راجع أيضاً أزهار الرياض (طبع تونس) ج ١ ص ٤

(٢) راجع وصف المقري لأهوال البحر فهو بديع شائق (ص ١٩ و ٢٠)

(٣) خلاصة الأثر — ج ١ ص ٣٠٤

(١) نفح الطيب ص ٣٤ — ٣٨

وما أنا عن تحصيل دنيا بعاجز ولكن أرى تحصيلها بالدنية
وإن طاوعتني رقة الحال مرة أبت فعلها اخلاق نفس أبية

وقوله :

تركت رسوم عزي في بلادي وصرت بمصر منسي الرسوم
وصنت النفس بالتجريد زهداً وقلت لها عن العلياء صوني
مخافة أن أرى بالحرص ممن يكون زمانه أحد الخصوم[1]

كان المقري إذن في منفاه متبماً معنى ؛ والظاهر أنها كانت متاعب العيش فوق شجون الاغتراب ؛ فقد كانت سوق العلم والأدب يومئذ كاسدة ، وكان المجتمع القاهري قد فقد في ظل النير التركي بهاءه وسمته ورخاءه ، وعفت روعة الأزهر الذي كان من قبل موئل الوافدين من كل صوب

ولكن المقري عاد فاستأنف الكتابة نزولاً على إلحاف صديقه أحمد شاهين واستنجازه ، واستطاع أن يتم كتابه عن ابن الخطيب بصورته الأولى في بضعة أشهر فقط لعودته من دمشق ، وذلك في أواخر شهر رمضان سنة ١٠٣٨ هـ (١٦٢٨ م) ؛ وفيه يتناول حياة ابن الخطيب ، ويستعرض صفاته وخلاله ومآثره ، وكثيراً من نثره ونظمه ؛ ويقول لنا إنه سمى مؤلفه لأول مرة « عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب »[2]

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو « نفح الطيب » كما انتهى إلينا . ذلك أن المقري خطرت له بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى هي أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها ، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلي ؛ فاستمر في الكتابة عاماً وبضعة أشهر أخرى ، وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد ، كما يحدثنا في خاتمة مؤلفه ، في آخر ذي الحجة سنة ١٠٣٩ هـ (١٦٢٩ — ١٦٣٠ م)[3] واختار عندئذ لكتابه اسماً جديداً ، هو الذي انتهى به إلينا ، وهو :

« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب »

والواقع أنه من التواضع أن يسمى « نفح الطيب » كتاباً ، فهو كما سنرى موسوعة ضخمة عن الأندلس ، تاريخها ، وجغرافيتها وآدابها ؛ ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقري أن يضع مثل هذا الأثر الضخم في مثل هذه المدة القصيرة ؛ ولكن سنرى أن فضل المقري في وضعه يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف ؛ وسنرى مع ذلك أن للمقري في هذا الاقتباس فضلاً لا يقدر ، وأن نفح الطيب هو أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها

وكان المقري منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية ، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة ؛ وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه وليطلعهم على مؤلفه الذي وضعه نزولا على إشارتهم ؛ ولكن الموت عاجله ، فتوفي في جمادى الآخرة سنة ١٠٤١ هـ (يناير سنة ١٦٣٢ م) ، ودفن بمقبرة المجاورين بالقاهرة[1]

(البحث بقية — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) نفح الطيب ص ٣٩ و ٤٠
(٢) نفح الطيب ص ٦١
(٣) « « في خاتمة الجزء الرابع

(١) يقول صاحب سلافة العصر إن وفاة المقري كانت في سنة ١٠٤٦ هـ (ص ٥٩١) ولكن الرواية الأولى أرجح ، وهي المتفق عليها

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر فلسفة المحدثين والمعاصرين تأليف الدكتور ا . وولف أستاذ المنطق بجامعة لندن وتعريب الدكتور أبو العلا عفيفي مدرس الفلسفة بكلية الآداب ، وهي الرسالة الرابعة من خلاصة العلم الحديث ، وقد لخص فيها المؤلف أمهات المسائل الفلسفية والطرق المختلفة التي عالج بها العلماء حلّ هذه المسائل ، ثم ذكر أهم اتجاهات الفلسفة الحديثة ، وذكر عدداً من الفلاسفة المحدثين الذين يمثلون كل اتجاه من هذه الاتجاهات ، وقد بلغ عدد الفلاسفة الذين كتب فيهم تسعة وثلاثين تتمثل فيهم النزعات الفلسفية والعلمية في كل نواحيها

والكتاب مطبوع طبعاً جيداً كطبعات الرسائل السابقة بمطبعة اللجنة ويقع في ٢٤٩ صفحة ، وفي نهايته قائمة بالمصطلحات الفلسفية الواردة في الكتاب ومرادفاتها العربية

وثمنه ستون مليما ، ويطلب من مركز اللجنة « ٩ شارع الكردامي بعابدين — مصر » ، ومن المكاتب الشهيرة